فن الطباق في حكم الامام

(علي عليه السلام)

م. م. وسن منصور الحلو
كلية الآداب / جامعة بغداد

المقدمة :

لقد اودع الله سبحانه وتعالى في النفس الانسانية التطلع الى الجمال تتملأه في كل مظاهر الطبيعة وكذلك في كل فعل من افعال الانسان المادية والمعنوية .

ويعد اسلوب البديع من الاساليب اللغوية التي تساعد على بلوغ درجة الحس والجمال الذي لاتنكر اهمية في البلاغة العربية ودور فنونه المبتكرة في بناء الاسلوب الفني للاداب العربي ،لما تتميز به هذه الفنون من اصالة منذ اقدم عصور الادب العربي اما اول من جمع جملة صالحة من انواع البديع وسماها بهذا الاسم في كتاب مستقل فهو عبد الله بن المعتز ،وكان ذلك سنة اربع وسبعين ومائتين في كتابه البديع فقد اشار الى ان هذه الفنون لها جذور موغلة في القدم فوردت في الشعر الجاهلي والقران الكريم والحديث النبوي (١)

ونستطيع القول (ليست فنون البديع باقل اهمية من علمي المعاني والبيان ، فقد حفل بها الشعر القديم والقران الكريم ،وجاءت معبرة عن المعنى خير تعبير) (٢)
ولكن المتأخرين من القدماء افسدوها بما اضافوا من زخارف اثقلت الكلام اما حديثا" فقد عرفه الدكتور محمد مصطفى بقوله (ضربا" من ضروب الرياضة العقلية ولونا" من الوان التناسق الذهني والفكري ومظهرا" من مظاهر الترف العقلي) (٣)

فاساليب البديع ليست مجرد حلية لفظية ،دائما" وانما هي وسيلة من وسائل التعبير ،ونتقل الان الى متابعة الطباق في حكم الامام علي عليه السلام مسلطين الضوء عليه بعد ان نعرف الطباق .

المعنى اللغوي :الطبق :غطاء كل شيء ، وقد طابقه والموافقة والتطابق الاتفاق وطابقت بين الشيئين :اذا جعلتهما على حذو واحد ،وطابق البعير في سيره : اذا وضع رجله موضع يده(٤)

المعنى الاصطلاحي : لايبدو ان ثمة علاقة بين المعنى اللغوي للطباق ومعناه الاصطلاحي اذا كان المعنى اللغوي للطباق يدل على الاتفاق والمساواة ،فان معناه الاصطلاحي يدل على العكس وهو التضاد .

وقد ترددت لفظة الطباق في مدلولها على الجناس مرة وعلى الطباق بمعناه الاصطلاحي مرة اخرى فنجد ثعلب قد استعمل(الطباق)(٥) ليدل به على معنى الجناس، وجعله ابن المعتز الباب الثالث من البديع وهو المطابقة ،قال الخليل رحمة الله :يقال طابقت بين الشيئين اذا جمعتهما على حذو واحد ... فالقائل لصاحبه :اتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان ،قد طابق بين السعة والضيق ... (٦)

وبعد الطباق هذا اللون البديعي الذي يقف الى جانب الوان البلاغة التي يعمد اليها الشعراء والكتاب في البناء التصويري لشعرهم وكذلك الحال بالنسبة للكتاب لما يثيره داخل السباق الاسلوبي جمعية لمشاعر ثرية تتصل بالصورة العامة للموقف(٧).

انواع الطباق :

وبما ان للطباق انواعا" ثلاثة (طباق الايجاب وطباق السلب ،وايهام التضاد) فقد لاحظنا ان اغلب الحكم التي جاء بها الامام هي من نوع (الطباق الايجاب).

وبعد ماتقدم لابد لنا ان نذكر ان الطباق هو ظاهرة تعبيرية قديمة في الكلام العربي وقد جاء هذا اللون والفن البديعي مرسلا" لدى الامام علي عليه السلام لاسيما وانه امام البلاغة والفصاحة العربية .

الحكم :

قال عليه السلام (مرارة الدنيا حلاوة الاخرة وحلاوة الدنيا مرارة الاخرة)[٨]، ان الاسلوب البديعي لاسيما الطباق قد جاء واضحا" في هذه الحكمة بحيث لاتستلزم من القارىء جهدا" لمعرفة ماجاء فيها اذ قال عليه السلام (مرارة ،وحلاوة) وقد تكرر كل لفظة منها مرتين وجاءت الفاظه متناسبة مع الموضوع واراد عليه السلام القول بيان .حلاوة الدنيا باستيفاء اللذات اما مرارة الدنيا . فهو العفاف عنها وعن لذاتها ففي الاولى مرارة العذاب في الاخرة وفي الثاني حلاوة الثواب منها.

وقوله عليه الصلاة والسلام (من ضيعه الاقرب اتيح لما الابعد) [٩]

الامام عليه السلام يرسم صورة اليأس بعد الضياع الذي يشعر به البعض بعد فراق الاحباب وضياعه فيقول ان من يضيعه الاقرب حتما" يجد من يساعده ويمد يد العون له من الاباعد أي المساعدة ستكون عن طريق صديق او جار له ،وقوله بان هناك الكثير من الاشخاص الذين اضاعوا اقاربهم وقت الشدة والمحنة فقدر الله لهم من الاباعد من يساعدهم وقت محنتهم والطباق في هذه الحكمة واضحة جدا" في قوله عليه السلام (الاقرب ،والابعد)

ومن حكمه عليه الصلاة والسلام في فضل النعمة وشكرها قال (اذا وصلت اليكم اطراف النعم فلاتنفروا اقصاها)[١٠] الامام علي عليه السلام حكمته باستخدامه هذا اللون البديعي والفن القديم اذ طابق بين (اطراف واقصى) ويشير الى ان المؤمن بالزكاة ومساعدة الاخرين يكون قد سار او لنقل هي الباب التي توصل الى الجنة ويذكر عليه السلام بان اداء الشكر للنعمة باداء الحقوق وان لا تنفروا منها ومن اداء الزكاة والصدقات فتنفر وتبتعد منكم فتحرما" من الجنة كما حرمتموها الفقراء وحكمة ايضاً قوله عليه السلام (من جرى في عينان امله عثر باجله) . يبين عليه الصلاة والسلام من كان سعيه وجريه الى سعادته يعنان الامل فهو يمني نفسه ببلوغ أمله ومطلبه بلا عمل سقط في اجله بالموت قبل ان يبلغ شيئا مما يريد، فالطباق في حكمته عليه الصلاة والسلام واضح في قوله (جرى وعثر) ومن أفضل

الحكم التي قبلت في الموت قوله عليه الصلاة والسلام (إذا كانت في ادبار والموت في اقبال ، فما أسرع المتلقى) (١١).

يبين عليه السلام سرعة الموت وخطفه للانسان اذ يقول عليه السلام بان الموت يطلبك من الخلف يلحقك . وانت مدبر اليه فانت تقرب المسافة عليه ، وها نحن نتساءل هل هناك ابلغ من هذه الصورة ؟

الطباق واضح بقوله عليه السلام (ادبار واقبال) حكم الامام عليه الصلاة والسلام قد تنوعت فقد كتب في العديد من الموضوعات ومنها حكمة في العمل .قوله عليه السلام (من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة) (١٢) .

ومعنى ذلك ان ماينفقه المرء من حاله بعد جرى وسعى فيه فعطى في سبيل الله ،وان كان هذا الذي نفقه يسير ،فان الله سبحانه وتعالى يجعل الجزاء عليه عظيما" وكثيرا" ،فالطباق كان واضحا" في قوله عليه الصلاة والسلام (القصيرة والطويلة) اما اليدان هاهنا عبارتان عن النعمتين ففرق عليه الصلاة والسلام بين نعمة العبد ونعمة الرب ،فجعل تلك قصيره وهذه طويلة لان نعم الله سبحانه ابدا" تضعف على نعم المخلوقين اضعاف كثيرة اذ كانت نعمة تعالى اصل النعم كلها فكل نعمة اليها ترجع ومنها تترع

ومن حكمه عليه السلام قوله (احذروا صوله الكريم اذا جاع ،واللئيم اذا شبع) (١٣) ،الطباق واضح قوله عليه السلام (الكريم واللئيم) وقوله ايضا (جاع وشبع) والحكمة واضحة الحذر من صولة الكريم .

ومن حكمه عليه السلام قوله (لايستقيم قضاء الحوئج الا بثلاث باستصغارها لتعظم ،وباستكتتامها لتظهر ،وبتعجيلها لتنهو)

يقول عليه السلام ان الحوائج في الدنيا كثيرة ومن صغار الحوائج لكن عن الطلب تكون كبيرة للسعي اليها والجري وراء طلب الحاجة وتكون استصغارها في الطلب لتعظم بالقضاء وكتمانها عند محاولتها لتظهر بعد قضائها ،فلاتعلم الا مقضية وتعجيلها للتمكن من التمتع بها فتكون هنيئة ،ولو عظمت عند الطلب او ظهرت قبل

خيف الحرمان منها ،ولو اخرت خيف النقصان ،فمن الملاحظ ان هذه الحكمة عبارة عن طباق فقد طابق بقوله (استصغارها لتعظم ، وبستكتامها لتظهر) .

وقال عليه السلام (توقوا البرد في اوله ، وتلقوه في اخره فنه يفعل أن الابد ان كفعله من الاستجار ، اوله بحرف وآخره يورق[١٤]، قدرة الامام علي على الاستقراء فنجده ينصح لناس بقوله خذوا الحذر من اول البرد لانه يأتي على عهد من الابدان بالحر فيؤذيها ، اما في اخر البرد فيمسها بعد ان تعود على البرد ، وعليه يكون البرد اخف وطئة اذ ذاك ، فالطباق في حكمته عليه السلام بقوله (اوله واخره) وقوله عليه السلام (يحرق ويورق) ويقول عليه السلام (الغنى والفقر بعد العرض على الله)[١٥] ان الغنى والفقر الحقيقي هو يوم العرض على الله سبحانه أي يوم القيامة فهناك يظهر ألغنى الحقيقي والفقرالحقيقي فالانسان في ذلك اليوم اما ان يكون في سعادة وغنى حقيقي وابدي او يكون في شقاء وفقر ابدي فعليه السلام لاينظر الى غنى المادة او فقرها ولكنه عليه السلام ينظر الى الفقر والغنى المعنوي فالطباق بقوله (الغنى والفقر) .

وبعد ماتقدم من حكم عليه السلام نجد ان البلاغة قد اتحدت عند الامام في دقة اختيار الكلمات والاساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال السامعين والنزعة النفسية التي تتملكهم وتسيطر على نفوسهم .

اسلوبه (عليه السلام) في الحكم :

اسلوبه يجمع بين الاساليب جميعا" فهو اسلوب علمي وادبي فأسلوبه عقلي اكثره احتيجا الى المنطق السليم والفكر المستقيم لانه عليه السلام يخاطب العقل ويناجي الفكر ويشرح الحقائق العلمية التي لاتخاو من غموض وخفاء كما اظهرت ميراث هذا الاسلوب الوضوح ، ولابد انه عليه السلام قد اثر القوة والجمال وقوة في سطوع بيانه ورصانة حجمه وجمال عباراته وسهولتها ، فضلا عن سلامة ذوقه في اختيار كلماته وحسن تقريره المعنى في الافهام من اقرب وجوه الكلام ، فالاسلوب العلمي كما نعلم يكون بعيدا عن المحسنات البديعية الا انه عليه السلام قد جاء بها عفوا من غير تكلف فيجاء الطياق في حكمه . وفي اسلوبه نجده قد ابرز صفاته

الجمالية ومنشا جماله ما فيه من تصوير دقيق والباس المعنوي ثوب المحسوس ، واظهار المحسوس في صورة المعنوي . كما نجد في حكمه قوة المعاني والالفاظ وقوة الحجدة والبرهان وقوة العقل الخصيب فهو عليه السلام يتحدث الى سامعيه لاثارة عزائمهم واستنهاض هممهم ولجمال اسلوبه عليه السلام ووضوحه شان كبير في ووصوله الى قراءة النفوس مما يزيد في تاثير هذا اسلوبه في نفوس سامعيه وقوة عارضته وسطوع حجته .

المصادر :

١ــ بحوث بلاغية ، احمد مطلوب ، مطبوعات المجتمع العلمي العراقي بغداد ، ١٩٩٦ .

٢ــ البديع : عبد الله المعتز ، مطبعة كراتشكوفسكي ، لندن ، ١٩٣٥

٣ ــ اتجاهات الشعر في القرن الثاني ، د. محمد مصطفى هداره ، دار المعارف ط ٢ ، ١٩٩٢ .

٤ــ لسان العرب لابن منظور ، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٥ .

٥ ــ قواعد الشعر ، يقلب شرحه وعلق عليه محمد عبد المنعم الخفاجي مطبعة اليابي الحلبي ، ١٩٤٨

٦ ــ فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، د . رجاء عيد منشاة المعارف الاسكندرية ، جلال حزى وشركاه (د. ت)

٧ ــ نهج البلاغة ، محمد عبده

٨ ــ حكم الامام علي بن ابي طالب ومواعظه ، جمال عبد الغني مدغمش ، عمان الاردن ، ٢٠٠٥

الهوامش :

(١) ينظر البديع عبد الله المعتز ،مطبعة كراتشكوفسكي لندن ١٩٣٥، ص ٨

(٢) بحوث بلاغية احمد مطلوب ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٩٦ ، ص ١٤٣

(٣) اتجاهات الشعر في القرن الثاني ،د.محمد مصطفى هداره ،دار المعارف ط٢ ، ١٩٩٢ ،ص ١٤١

(٤) نظر :لسان العرب لابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم دار صادر للطباعة والنشر ،بيروت ١٩٥٥

(٥) قواعد الشعر ،ثعلب شرحه وعلق عليه محمد عبد المنعم خفاجي مطبعة البابي الحلبي ،١٩٤٨ ،ص ٥٦

(٦) البديع ،ص ٣٦

(٧) فلسفة البلاغة ،ص ٢١٨

(٨) نهج البلاغة ،محمد عبده ،ص ٦٠٥

(٩) نهج البلاغة ص ٥٦١

(١٠) نهج البلاغة ص ٥٦١

(١١) المصدر السابق ص٥٦٣

(١٢) نهج البلاغة ص ٦٨٧

(١٣) نهج البلاغة ص ٧٧٦

(١٤) نهج البلاغة ص ٥٧٦